محكم

النظرة الاجتهاديّة والمنهجيّة الحركيّة

عند العلاّمة المجدّد "السيد" محمّد حسين فضل الله

في معالجة قضايا "التاريخ" و"العقل والعلم" وتحليلها

نبيل علي صالح

باحث سوري

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

الملخّص:

يخوض "السيد" فضل الله، من موقعه المرجعي الديني، غمار البحث في مواضيع حساسة ومهمة، كالتاريخ والعقل والعلم، مقدمًا لنا ما يعتقد أنه "رأي" الإسلام في تلك القضايا، ومحاولًا عبر ذلك إعطاء انطباع إيجابي وصورة ناصعة وحسنة عن الإسلام دينًا إنسانيًا تنويريًا عقلانيًا يأخذ بأسباب العصر، وينفتح على الحياة والإنسان في كل مواقعها ومتغيراتها بلا تعقيد ولا قسر بل بسهولة ويسر.

ويعتقد "السيد" فضل الله بأن التاريخ ليس مجرد تسجيل حرفي لقضية من قضايا الماضي، بل أصبح أداةً فاعلةً تسهم في عملية صنع الحاضر، ولهذا لا بد للباحث في المجال التاريخي من التخلي عن الهالة القدسيّة التي يحاول أن يحيط بها هذا التاريخ بكل ما فيه من انحرافات وأخطاء. ويؤكد "السيد" فضل الله أنه لا يمكن للأمة والمجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة أن تنهض من كبوتها وتخلفها الحضاري الراهن شبه المقيم ما لم تمارس عملية نقد علمي موضوعي لتاريخها وماضيها القديم، نقد يطال كثيرًا من المسلمات والأفكار والاعتقادات الباطلة التي يعج بها هذا التاريخ. ويرفض "السيد" فضل الله إخضاع التاريخ الإسلامي لقراءات نقدية تحاول قسر التاريخ لصالح أفكار حديثة لتخرج الأحداث والمواقع التاريخ من سياقها وإطارها الطبيعي، مما يجعلها عاجزة تمامًا عن فهم طبيعة الحدث التاريخ، وقاصرة قصورًا نظريًا وعمليًا عن الاستفادة منه في الحاضر والمستقبل. وتحفل كتب ومحاضرات "السيد" محمد حسين فضل الله بالكثير من النماذج الفكرية العملية الواقعية للكيفية العلمية والمنهجية الموضوعية التي يتعاطى "السيد" من خلالها مع أحداث وقضايا ورموز وشخصيات التاريخ الإسلامي.

ويتحدث "السيد" عن تجربة الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم، بوصفها مثالًا واضحًا وأنموذجًا بارزًا على طريقة التعامل مع التاريخ، على أنها تجربة فيها دروس وعبر كثيرة مطلوب منا دراستها والاقتداء بها، لأنها شريعة إسلامية ورسالة ومصدر تشريعي.

ويؤسس "السيد" نظرته إلى العقل بناءً على القرآن الذي هو تبيان لكل شيء، إذ إننا عندما ندرس حركة المستقبل في نشاطات الأمة بشكلٍ عام، وفي تطلعات الإسلام، فإننا نستوحي من القرآن الكريم، في مفاهيمه التي تعبر عنها آياته، أنه يخطط لصنع العقل الإنساني الذي ينفتح في أول انطلاقاته على آفاق معرفة الله تعالى، خالق السموات والأرض والإنسان، ومبدع النظام الكوني بكل أسراره الإبداعية التي تمثّل عمق العناصر التي يرتكز عليها الكون كله، على أساس أن الله تعالى جعل لكل شيء قدرًا "إنا كل شيء خلقناه بقدر" [القمر: 49]، فليس هناك في الكون أيّة صدفة، حتى ما يعتبره الناس في حياتهم الخاصة وفي أوضاعهم العامة صدفةً، فإننا عندما نتعمّق فيه، نجد أنه خاضع لنظام معيّن يتمثّل بالظروف الخفية أو البارزة التي تحيط بالإنسان وبالواقع.

وينطلق "السيد"، على صعيد العلاقة بين العلم والأخلاق، في إدراكه للعلاقة القائمة بين المبدأ الأخلاقي والأحكام القيمية الأخلاقية العليا في الحياة، من جهة، وبين العلم والأحكام العلمية والعقلية والمعرفية، من جهة أخرى، من قاعدة أساسية هي أن "الإنسان موجود أخلاقي". وهذه قاعدة مطلقة، وأن القيم الأولية والأساسية الأخلاقية كالعدل والحرية والسعادة والتكامل هي قيم مطلقة. وهذا الكائن الأخلاقي يستمد وجوده وقيمه الأخلاقية وأحكامه الأخلاقية العملية، في المبدأ والأصل، من الإيمان بالله تعالى، باعتباره واجب الوجود ومصدر الواجبات، وأن طاعة أي أمر أخلاقي تستمد مشروعيتها من استلهام وطاعة الواجبات الإلهية.

العلاّمة الراحل "السيد" محمد حسين فضل الله، هو واحد من ألمع المفكرين الإسلاميين، ومن أبرز علماء الدين التنويريين العقلانيين، ومن أهم مراجع الفكر الإسلامي المعاصر المحدثين. وقد شكل منذ بداية صعوده المرجعي الإسلامي في النصف الثاني من ثمانينات القرن الماضي ظاهرةً نوعية وحيوية لها جديّتها وأصالتها وموقعها المميز والفريد داخل منظومة التفكير الديني الإسلامي، بألمعيته الفكرية، وسعة اطلاعه، وانفتاحه الديني، وحضوره الاجتماعي البارز والمؤثر ومقدرته العلمية العملية على الجمع بين الرؤية النظرية والممارسة العملية، بين الفكر والمنهج النظري الديني الذي يعتقده ويؤمن به، والعمل المؤسساتي التطبيقي الذي يبرز واضحًا في مؤسساته الاجتماعية المتعددة وخدماته الكبيرة المتنوعة التي يقدمها لأبناء مجتمعه من مختلف التوجهات والانتماءات والمستويات، وقد أوصله ذلك التماهي بين الفعل والقول إلى مستوى رفيع في بناء دور مرجعي إسلامي وإنساني كبير في أوساط العرب وغير العرب، من المسلمين وغير المسلمين، وخصوصًا في الوسط الإسلامي الشيعي.

وقد حمل "السيد" فضل الله الهمّ الفكري والثقافي الإسلامي والإنساني لهذه الأمة منذ بدايات تفتحه الأولى، ثم انطلق ليدرس ويجتهد ويكتب ويحاور ويخاطب الشرق والغرب في دعوة سامية للحوار والتعارف، وقد كان من العلماء السباقين في هذه الأمة إلى نبذ العنف والإرهاب وتكريس مفهوم الحوار واللقاء والتسامح الفكري والروحي، وكان من الذين ناصروا المستضعفين أنّى وجدوا، وقد حمل لواء رسالة الإسلام الحضارية الإنسانية في عناوين الحريات والأخلاقيات والوحدة الاسلامية ودور المرأة ومكانة العلم والفنون، ليكون بحق عالِمًا لا تختصره الكلمات ولا تسمو إليه الرتب والألقاب.

وبالنظر إلى ما تقدم، وإلى مكانة "السيد" المتميزة على الساحة العربية والإسلامية التي كوّنها وراكمها لبنة لبنة بجهده وكدحه الارتقائي العلمي وانفتاحه على الحياة والفكر والتيارات الأخرى من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، وإلى ما يقوم به من أدوار حركية فكرية وعملية نوعية وحيوية على صعيد الدعوة والتبليغ والبناء النفسي والتربوي لأجيال الأمة، وما تمارسه مؤسساته الكثيرة المتعددة والمتنوعة أيضًا، وبالنظر إلى امتداد مرجعيته الدينية وأهمية طروحاته وآرائه العقلية التي تتمحور حول تأكيده الدائم على امتلاك الإسلام الإمكاناتِ والقدرات النظرية والعملية للانفتاح والتطور والازدهار، سنحاول تحليل فكر وأسلوب ومنهجية البحث المعرفي لدى "السيد"، من خلال الغوص في موقفه من قضيتن مهمتين، سنبحثهما في مبحثين اثنين، هما:

المبحث الأول: منهجية السيد فضل الله في دراسة ووعي التاريخ الإسلامي

إن تاريخ أية أمة من الأمم أو أي شعب من شعوب الأرض يشكل ذاكرةً توثيقية حية في الراهن والمستقبل لمجمل نشاطاتها وفعالياتها وأدوارها ومختلف مراحل نموها وتصاعدها الحضاري الطويل، كما أن له، أي للتاريخ، دورًا حيويًا في نموها وتطورها في الحاضر والمستقبل، لأن في التاريخ كثيرًا من الأحداث والذكريات والتجارب الحقيقية الحية يمكن أن تجنب أية أمة أو مجتمع كثيرًا من المزالق والمخاطر والأخطاء، بما يقدّمه لها ذلك التاريخ، الموثق والمضبوط بموازين العقل والمنطق والموضوعية والأمانة التاريخية، من تجاربها الماضية في مراحل نموها الأولى، وما تحمله تلك التجارب من دروس عملية كثيرة، تستطيع بها أن تضع يديها بوعي على مواطن الضعف ومواطن القوة في شخصيتها التي عاشتها في تلك الأدوار والمواقع الماضية. وهناك يكون الطريق أكثر إشراقًا، وأرحب آفاقًا مما لو انطلقت فيه على غير هدى التاريخ.

وإذا كان من الطبيعي أن تهتم كل أمة من الأمم بتاريخها، وتنشئ لها المتاحف التاريخية الضخمة لتعرض فيها أهم مكتشفاتها وكنوزها الأثرية، وتهتم بالبحث والتنقيب الأثري في بواطن أرضها، وترصد لهذه الأعمال الميزانيات الضخمة، وترسل البعثات للدراسة والبحث للنهوض بهذا القطاع، وتعمل على استثماره في حركتها السياحية بما يعود بالفائدة على مستقبل شعوبها، فإن من الأولى الاهتمام بتحليل ودراسة ونقد تاريخنا الراهن، غير البعيد زمنيًا عنا، إذ لا تزال معطياته وأحداثه ومفاعيله ومختلف مواقعه تؤثر فينا إيجابًا وسلبًا، وترهن وجودنا الروحي والمفهومي لكثير من الأخطاء والانحرافات الفكرية والعملية الناجمة عن القراءات المنحرفة والمتحيزة لأحداث وقضايا ورموز تاريخنا الإسلامي، فتحول هذا التاريخ، تحت وطأة سيطرة تلك القراءات الخاطئة والانحرافات والتحريفات الفادحة، إلى ما يشبه الوثن الفكري المقدّس غير القابل للتحليل والدرس والنقد.

ولا نغالي إذا ما قلنا إن العلامة السيد فضل الله هو من العلماء المسلمين القلائل الذين اشتغلوا على قضية النقد التاريخي من موقع دراستهم للتاريخ بالعقل والوعي والقراءة الناقدة التحليلية، ولم يؤخذوا بما يقدم هنا وهناك من ألوان زاهية لأحداث التاريخ المشبعة بالخرافات والتخيلات والأوهام والتزوير والتزييف الروحي والمفهومي التي تعد عند كثيرين مقدسة ومغلقة على العقل والفهم. كما أن لسماحته دورًا مهمًا واضحًا في تأثيره العملي المباشر على مستوى إعادة تحليل ودرس ونقد كثير من معطيات وأفكار ومواقع تاريخنا الإسلامي، فهو ينظر إلى هذا التاريخ ليس بوصفه مقدسًا واجب الاتباع مطلقًا، ولا صنمًا مطلوب منا أن نتعبد في محرابه ليل نهار، ولا نصًا مغلقًا غيرَ قابل للتحليل والتأمل وأخذ العبر والدروس، ولكنه يرى التاريخ مجموعة أفكار وأحداث ورموز فيها الصواب وفيها الخطأ، فيها الغث وفيها السمين، فيها الميت وفيها الحي الدائم الحضور

بفكره ومنهجه وملاقاته لفطرة الإنسان الساعية والمنطلقة للحق والعدل والحرية. ولذلك يدعو، في منهجيته التاريخية، إلى اعتبار أمة الإسلام التي انطلق مجدها من خلال العنوان الديني الإسلامي، إلى جانب العوامل الأخرى، كانت لها أدوارها الحيوية الرسالية ومكتسباتها ومواقعها المتميزة السابقة التي لن تعود أبدًا، ولكننا نحن أبناء هذا العصر علينا أن ندرس تلك المواقع والمراحل التاريخية من تاريخ أمتنا من خلال وجودنا الإسلامي أمّةً إسلاميةً واعيةً أنشأت حضارةَ عظيمةً، يمكن اعتبارها، بمعنى من المعاني، أمّ الحضارات الحديثة، أي أن "السيد" يريد أن يقرأ التاريخ على هدي من وعي وعمق ومعرفة في هذه المرحلة التي نحاول فيها العودة إلى الشّوط من جديد، بعد أن غبنا عنه مدة طويلة، لنحمل مشعل الكرامة والعدالة الإنسانية في رسالة السّماء إلى الأرض، وهذه المحاولة التي يدعو إليها "السيد" ليست مجرّد ترفٍ ذهني، ودراسة مجردة، وإنما هي ضرورة حتمية، وواجب حيوي لمرحلتنا الحاضرة. إنّها من أبرز الواجبات الملقاة على عاتق المفكرين والنخب الواعية وكل المسؤولين عن قضية الإسلام، بالنظر إلى أنّ ذلك التاريخ سجّل للمعركة التي خاضها الإسلام ضد خصومه وأعدائه، وقد علق به ما علق بكثير من مفاهيم وأحداث وأفكار الإسلام من شوائب وألوان دخيلة بسبب ما حلَّ بالمسلمين من ارتباك واضطراب، ولذلك فقد وصل إلينا وهو يجر خطواته في وهنٍ وضعف، حاملًا أثقال الفترة المظلمة والعهود السّود.

أولًا: معايير دراسة التاريخ عند "السيد" فضل الله

بالاستناد إلى ما تقدم، ومن أجل فهم ووعي أكثر عمقًا ونفعًا لتاريخنا الإسلامي، يقدم "السيد"، في ضوء منهجيته التاريخية، وموقفه من التاريخ، ووعيه له، مجموعة ملاحظات أساسية في سبيل الوصول إلى أفضل الطرق لدراسة تاريخنا الإسلامي بروحٍ علميةٍ عميقة تقرأ تاريخنا من جديدة قراءةً واعيةً، وتحاول أن تدرسه وتفلسفه وتتعرّف على جذوره الأصلية، ومعطياته الخصبة، على ضوء من هدى الإسلام وأسلوبه. ويمكن إيجاز تلك الملاحظات فيما يلي:

1. يعتبر العلامة السيد فضل الله أن التاريخ ليس مجرد تسجيل حرفي لقضية من قضايا الماضي، بل أصبح أداةً فاعلةً تسهم في عملية صنع الحاضر، والتأثير الإيجابي المثمر في استحقاقات المستقبل، بطبيعة ارتباطه بها وارتباطها به، تمامًا كارتباط الشجرة بجذورها وعروقها الضاربة في أعماق الأرض.

2. ينبغي على كل باحث ومفكر وقارئ ودارس لحركة التاريخ العربي والإسلامي، قبل كلِّ شيء، أن يتخلّى عن الهالة القدسيّة التي يحاول كثيرون أن يحيطوا بها هذا التاريخ بكل ما فيه من انحرافات وأخطاء، لأننا لن نحصل على فائدة من دراستنا له بدون ذلك، بل القضية تكون عكسية، لأن هذا الأسلوب يؤدي إلى تقديس الأخطاء، وفي هذا ما فيه من الانحراف عن الغاية التي نسعى إليها، والهدف الذي نهدف إليه.

3. يعتقد "السيد" أن كثيرًا من القضايا والملابسات التي حدثت في صدر الإسلام والانقسامات التي ابتلي بها المسلمون، أثّرت على سير هذا التاريخ في عصر الرسالة، لأن تلك القضايا خلقت عندنا كثيرًا من المؤرّخين المرتبطين والمرتزقة، الذين كانوا يعيشون على موائد الملوك والسلاطين، ليخلقوا لهم المآثر والفضائل والأحاديث التمجيدية المزيفة، ويصوّروها بصورة جذابة تلفت الأنظار في أيِّ موضوع أرادوا، حسب الحاجة السياسية والشخصية، ولذلك فلن نستغرب، كما يؤكد "السيد"، إذا قرأنا كثيرًا من الوقائع التاريخية في صورتين متناقضتين، تعكسان الانقسامات الموجودة بين المسلمين، وتبرز كل منهما الواقعة التاريخية على ضوءٍ من اتجاهاتها وغاياتها، كما يحدث في عصرنا الحاضر عندما تتضارب الصحف السياسية في تصوير بعض القضايا التي نعيشها بأنفسنا نتيجة تضارب الرأي أو الاتجاه الذي تمثله هذه الصّحيفة أو تلك. وإن المطلوب من أي باحث وناقد لهذا التاريخ أن يراعي هذا الواقع الذي عاش فيه التاريخ العربي والإسلامي، ليسير في بحثه بهدوء وحذر ويقظة متناهية، لئلاّ يقع في الخطأ من حيث لا يعلم، وينحرف عن الدرب من حيث لا يريد.

4. يشير "السيد" إلى أن بعض دارسي التاريخ الإسلامي، المستشرقين منهم على وجه الخصوص، عدّوا كثيرًا من الأعمال التي تقوم بها بعض أو كثير من الجماعات التي تدين بالإسلام هي الوحيدة الممثّلة لوجهة النظر الإسلامية، مهما كان لون تلك الأعمال ومهما كان نوعها وطابعها. وهذا خطأ فكري وتاريخي كبير، له تداعياته السلبية على مستقبل الإسلام والنظرة إليه من قبل باقي الأديان والحضارات. وإن الجماعات الإسلامية والمسؤولين المسلمين، الذين عاشوا في التاريخ الإسلامي، ليسوا إلاّ أناسًا كبقية الناس، لهم أخلاقهم الخاصة، ولهم طبائعهم وأذواقهم المعينة، ولهم أخطاؤهم البشرية، وليست تصرفاتهم إلا تصرفات بقية بني الإنسان، وليس لها علاقة بالإسلام إلا بمقدار قربها من مبادئ الإسلام ومفاهيمه.

5. يؤكد "السيد" فضل الله أنه لا يمكن للأمة والمجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة أن تنهض من كبوتها وتخلفها الحضاري الراهن شبه المقيم، الذي يلفها من أخمص قدميها وحتى أعلى رأسها بالمشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وحالة الضعف العلمي التي جعلتهم في حالة عزلة تامة عن المشاركة والإسهام الحي في عملية صنع التاريخ المعاصر، ما لم تمارس عملية نقد علمي موضوعي لتاريخها وماضيها القديم، لأن عملية النقد التاريخي وإعادة تقييم ودراسة تلك المراحل في التاريخ الإسلامي تتصل بالمرحلة الأولية من مراحل العمل والبناء، وهي مرحلة الإعداد والتكوين، إعداد الخطط التي يسير عليها العمل، وتكوين الأسس والمبادئ العامة التي يرتكز عليها البناء.

6. يعتقد السيد فضل الله أن نقد التاريخ لا يمكن أن يستقيم أو يتم على أصوله العلمية والموضوعية، على مستوى استثمار إيجابيات مواقع التاريخ المضيئة، والانتفاع الإيجابي بها في حاضر الأمة ومستقبلها، وهي تخوض غمار بحثها عن موقع ودور رئيسي لها في الحياة، ينطلق من كونها أمة مسؤولة وشاهدة، بحسب التعبير القرآني، ما لم نفهم ونعي طبيعة ونوعية المعرفة التاريخية التي تقدمها لنا دراسة التاريخ، وعلاقتها بالواقع الحياتي الذي نعايشه في الحاضر وفي المستقبل، لأن الزمن كل متكامل ومتفاعل بأبعاده ومستوياته الماضية والحاضرة والمستقبلية التي لا تنحصر فيها الفكرة النافعة والجيدة والعبرة الحسنة الصالحة، بل تبقى صالحة للقادم من الأيام. وبالتالي، فإن على المثقفين والدعاة، وحاملي لواء الفكر والمعرفة العلمية، أن ينطلقوا لفهم طبيعة المشكلات والتحديات الحاضرة التي يتخبط فيها الواقع الإسلامي، انطلاقًا من المشاكل العقدية التي تتمثّل في اختلاف المذاهب والمدارس الفكرية والإسلامية، في تفاصيل العقيدة وفروعها، وفي نوعية الطرق التي تصلنا بها، وتوصلنا إليها، ولن نستطيع التعرّف على طبيعة هذه المشاكل، وعلى الحلول العلمية التي نقدمها لمعالجتها، وبالتالي، لن نصل إلى نتيجة ذات جدوى، إذا حاولنا الوقوف أمام المظاهر السطحية البارزة، من دون أن ننفذ إلى أبعد منها، لأن ذلك لن يهيئ لنا الوقوف أمام واقع المشكلة، وبالتالي لن يستطيع أن يخطو بنا خطوة واحدة نحو الحل الجذري الصحيح. ولذلك لا بدّ لنا من النفاذ إلى الأعماق، لنتلمّس بأيدينا جذورها وأسبابها البعيدة والقريبة التي تمتد إليها هذه المشكلة أو تلك، لأن لكل مشكلة، وكل قضيةٍ، مؤثراتها وعللها، وجذورها الأصلية في حياة الأجيال السابقة.

7. يرفض السيد فضل الله إخضاع التاريخ الإسلامي لقراءات نقدية تحاول قسر التاريخ لصالح أفكار حديثة لتخرج الأحداث والمواقع التاريخ من سياقها وإطارها الطبيعي، مما يجعلها عاجزة تمامًا عن فهم طبيعة الحدث التاريخ، وقاصرة قصورًا نظريًا وعمليًا عن الاستفادة منه في الحاضر والمستقبل، فالإسلام، كما يعتقد "السيد" العلامة، كان وليد الأمة التي عاش في أرضها، وربيب البيئة التي نشأ فيها وتأثر بها وأثَّر فيها، ولذا فإنه يحمل رسالة هذه الأمة وعبقرية هذه البيئة، ويمثِّل آمالها وآلامها أصدق تمثيل، وبهذا كان دور الإسلام في هذا التاريخ، من خلال هذه النظرة، هو دور الأمة التي كان الإسلام أصدق تعبير عنها، وأصفى مرآةٍ لروحيتها وتطلعها وظمئها إلى السموّ والإبداع، ويسجل "السيد" هنا النظرية المادية، المادية الديالكتيكية، مثالاً بارزًا على تلك القراءات الخاطئة لتاريخنا الإسلامي، التي تُخضع كل التطورات التاريخية والحياتية للعامل الاقتصادي الذي يتمثّل في تطور وسائل الإنتاج، والذي يعيّن طبيعة العلاقات الاقتصادية في كل مرحلة من المراحل، التي تعيّن بدورها كل الأوضاع الفكرية والروحية والاجتماعية التي يعيشها المجتمع البشري بشكل عام.

وهكذا يصبح التاريخ خاضعًا لحتمية هذا التطور، الذي يزعمونه، من دون أن يستطيع الفكاك منه. أما طبيعةُ ارتباط هذه النظرة بمعرفتنا التاريخية فتتمثَّل في أنها تحاول إخضاع تاريخنا لهذا المنطق، وفرض تلك المراحل الحتمية على هذا التاريخ، كما شاهدناه في بعض الدراسات التي حاول فيها بعض الباحثين الذين يتبنون هذه النظرة أن يفسر التطورات الحياتية التي حدثت قبل الإسلام وبعده بالتفسير الذي ينسجم وهذه النظرية. ويرفض "السيد" أيضًا نوعًا ولونًا آخر من تلك القراءات التاريخية المنحرفة والزائفة، وهي القراءة التي يحاول منتجوها أن يجعلوا من التاريخ الإسلامي مرحلة من مراحل تاريخ أمة معينة أو شعب معين، حتى كأن في انطلاق هذا التاريخ في حياتها ما يبرر اعتباره تراثًا قوميًا ينبع من طبيعة العوامل والمؤثرات القومية. وامتدّ هذا الاتجاه في هذا المجال حتى حاول أن يجعل من الإسلام مجدًا من أمجاده القومية الخاصة، فقد كان وليد الأمة العربية، لا رسالة إلهية تمتدّ من السماء، لتحتضن البشرية جمعاء في آلامها وآمالها. وقد أصبح لكلٍّ من هذين الاتجاهين دراساتهما المعينة، ومناهجهما المحددة، حتى عاد القارئ العصري يلتقي بكل منهما في أكثر من كتاب وفي أكثر من محاضرة. وأما اللون أو الاتجاه الثالث الذي يحاول أن يفسّر هذا التاريخ من خلال دور الإسلام فيه دينًا، فلا تجد له خطًا معينًا، ولا منهجًا محددًا، وإنما هي كلمات وآراء متناثرة تلتقطها من هنا وهناك، مما يكتبه بعض الكتّاب المسلمين، من حيث يقصدون ومن حيث لا يقصدون. إنها كلمات عابرة وآراء سريعة، ولذا فإنها لن تترك في نفس القارئ أي أثر لو التفت إليها، ولذا فلا تبدل في ذهنيته أي شيء. وقد يبدو غريبًا أن ندرس التاريخ من خلال تأثير الإسلام فيه دينًا، أو أن نعتبر ذلك اتجاهًا آخر في دراسته، ولكن هذه الغرابة ترجع إلى غموض هذا المنهج الذي ندعو إليه ونحاول التعرّف إلى ملامحه وآثاره، ولذلك فإنها ستزول حتمًا عندما نوفق إلى رسم الصورة المضيئة لما نحاوله.

8. يربط "السيد" في منهجيته التاريخية ربطًا جوهريًا بين التاريخ والإسلام، إذ إن هذا الدين، الذي ختم الله به الرسالات، غيّر حياة الشعوب التي دانت به وانتسبت إليه، وحاول أن يطبعها بطابعه، ويربط حركتها وأفكارها وعلاقاتها العامة والخاصة بمفاهيمه العامة التي جاء بها لتنظيم الحياة. ويطرح "السيد" سؤالًا مهمًا حول المستوى أو الحدّ الذي وصل إليه هذا الجهد المبذول، وما هو مقدار نجاح هذه المحاولة التي حاولها الإسلام؟ ويجيب "السيد" بأننا لا نستطيع أن ندّعي استيعاب هذا التغيير لجميع نواحي الحياة، ولا يمكن القول إن تلك الشعوب مثّلت صورة صادقة عن الإسلام وتجسيدًا حيًا لمفاهيمه، ولا نستطيع هذه الدعوى ولا هذا الزعم، لأننا واجدون في هذا التاريخ ما يضع أيدينا على كثير من الانحرافات والتحريفات عن مفاهيم الإسلام وخطوطه العامة، وهنا تبدأ مهمة البحث والنقد التاريخي، وتتجلّى طبيعة المنهج الحركي لفهم وقراءة التاريخ الإسلامي باعتباره تجربة عملية للإسلام، وامتحانًا لقدرة مفاهيمه وتعاليمه على العيش في حياة الناس والتأثير فيهم، وملاحظة عوامل الضعف في هذه التجربة من حيث نشوئها داخل هذه المفاهيم، كما يدَّعي الأعداء، أو

من حيث الظروف التي أحاطت بالتجربة الزمنية ومنها الظروف الاجتماعية، أو من حيث الوعي القلق لواقع هذه المفاهيم وحقيقتها الأصيلة. وعندما يصر "السيد"، في منهج بحثه التاريخي، على ضرورة وأهمية دور الدين والرسالات السماوية، الإسلام في هذا التاريخ خاصة، فهو يستهدف إثارة وعي القارئ للتاريخ، وهو يقرأ، بحركة الدين في هذا التاريخ، بحركة مفاهيمه وبحيوية روحه وبأصالة حلوله، ومن الطبيعي لهذا الوعي أن يلتقي بالأمة التي كانت أول مجال عملي لاختبار قدرة الدين على التأثير، وأول راشد عاش هذا الدين في أفقه، وانطلق يتحدث إلى العالم بلغته. وذلك هو الهدف الأساس الذي يبتغيه "السيد" فضل الله من هذه المحاولة، وهو لا يريد بذلك المنهج اختراع تاريخ جديد، وإنما محاولة فهم هذا التاريخ من حيث هو تجربة عملية للدين، وبالتالي حفظ هذا التاريخ من الفهم المزوَّر، والمنهج الخاطئ الذي وقع فيه كثير من القارئين والدارسين له، والابتعاد به عن طبيعة السرد الحرفي، من سير وتراجم ونصوص حكائية رثة بليدة، إلى الطريقة التي تجعل منه معنى يتحرك في داخل حياة الناس ليحرك الحياة من حولهم، مما يؤدي إلى تجنيب الأجيال الإسلامية الطالعة الانحرافات التاريخية، وأخطاء المناهج المتعدّدة التي تدرس هذا التاريخ.

ثانيًا: أمثلة عملية على منهجية "السيد" في قراءة التاريخ:

تحفل كتب ومحاضرات وندوات وخطب ومواعظ العلامة السيد محمد حسين فضل الله بالكثير من النماذج الفكرية العملية والتجسيدات الواقعية للكيفية العلمية والمنهجية الموضوعية التي يتعاطى "السيد" من خلالها مع أحداث وقضايا ورموز وشخصيات التاريخ الإسلامي، ويكاد لا يخلو كتاب أو طرح أو موقف أو رؤية معينة للسيد من ذكر أو إشارة تعبيرية، بهدف الدرس والموعظة الحسنة، إلى أهمية وعي دور تاريخ الرسل والأنبياء والرسالات بما فيها، بل مقدمتها، تاريخ وفكر وحياة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وسير وتراجم الخلفاء والأئمة، ومختلف الحوادث والتحولات التاريخية، محاولاً ربط التاريخ الماضي بالحاضر والمستقبل بسلاسة ويسر من دون تكلف أو قسر، مما يشعر الموجود في الزمن الحاضر، والمنفصل جسديًا عن الزمن الماضي، أن القضية واحدة والهدف واحد مع تعدد الأدوار والممارسات واختلاف الأشخاص وتنوع الأساليب وتقادم الأيام والأزمان. وهي قضية الوجود الحي والفاعل والهادف والخلاق للإنسان في الحياة.

ويتحدث "السيد" عن تجربة الرسول، صلى الله عليه وسلم، مثالاً واضحًا وأنموذجًا بارزًا على طريقة التعامل مع التاريخ، إذ إنها تجربة فيها دروس وعبر كثيرة مطلوب منا دراستها ووعيها والاقتداء بها. لأن تجربة النبيّ محمَّد، صلى الله عليه وسلم، شريعة إسلامية، وعمله رسالة ومصدر تشريعي، كما أنَّ قوله رسالة ومصدر للشريعة، انطلاقًا من الآية الكريمة التي تدعونا إلى التأسي به والاقتداء بعمله، إذ يقول تعالى: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا" (الأحزاب: 21).

ولكن الملاحظ على هذا الصعيد، أقصد صعيد دراسة تاريخ الرسول الكريم، أن كثيرًا من المفكرين وعلماء الدين يدرسون التاريخ الخاص به، صلى الله عليه وسلم، بشكل تقريري جامد، ينقل القصة من خلال استيحاء قداسة الرسول لا قداسة الرسالة، أو بالأحرى من خلال شخصية صاحب الدعوة، دون التفات إلى حركة الرسالة في حركته وشخصيته وممارساته العملية على مستوى التطبيق. ويدعو "السيد" هؤلاء إلى البدء بدراسة تاريخ الرسول، صلى الله عليه وسلم، سيرةً ذاتيةً للرجل لا للرسول تصل إلى حدّ تمثّل الرسالة عن طريق العرض حدثًا من أحداث حياته الخاصة، أمّا أخلاقه وأساليبه في العمل فهي من مميزاته الفريدة التي لا يمكن لأحد أن يبلغ شأوها أو يقترب من مستواها، فلذا لا مجال لدى هذا الاتجاه للاحتجاج على تأسي المسلمين بأخلاق النبيّ وأعماله، لأنَّ تلك المميزات من خصائصه الذاتية وليست ميزة إسلامية يمكن للمسلمين أن يقتدوا بها في حياتهم العامّة للتدرج في مدارج الكمال.

ويشير السيد فضل الله إلى أن هذا الاتجاه في فهم ودراسة تاريخ الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد شارك في تركيز العلاقة بين الأنبياء وأتباعهم على أساس شخصيّ، مما جعل التقديس الروحي يتجه إلى الأشخاص أكثر ممّا يتجه إلى الرسالة، فنراهم ينصرفون إلى ممارسة الطقوس التي تمثّل الإخلاص للنبيّ، والاحتفال بذكراه وزيارة قبره، بينما لا نجد مثل هذا الاهتمام بممارساتهم لواجبات الرسالة وطقوسها والتزاماتها. وقد تدرج هذا الوضع إلى مرحلة إنشاء نوع من أنواع المدح النبوي الذي يتغزل فيه المادح بحسن النبيّ وجماله ويقف ليثبت فيه وجده ولوعته وشوقه تمامًا كما يتغزل أيّ حبيب بحبيبه. والمطلوب هو التوازن بين حبّ الرسول وحبّ الرسالة، ويبدو لنا أن مثل هذه الأجواء توجد نوعًا من الانفصام وعدم التوازن بين حبّ النبيّ الشخص وحبّ النبيّ الرسول وحبّ النبيّ الرسالة من جهة أخرى، لأنَّك لا تشعر بالرسالة في هذه الأجواء إلاّ من خلال الجانب الذاتي الذي يثير الحبّ المنفصل عن حبّ الرسالة، أي أنَّ هذا الأسلوب التقريري التقليدي في فهم علاقاتنا بالرسول هو الذي أدّى إلى هذه النتائج الفكرية أو العملية، لأنَّنا لم نشعر بالرسالة وهي تتحرّك في مراحل القصّة وأدوارها، بل كان كلّ شعورنا يتركز على الرسول، وهو يتحرّك فتتحرّك الرسالة من خلاله، لتفهم تبعًا لفهمه.

ويتحفظ "السيد"، إلى حد الرفض الكامل، على هذا المنهج الذاتي اللاموضوعي في دراسة التاريخ انطلاقًا من منهج القرآن الذي كان يتحدّث عن الرسول الكريم من خلال الرسالة، سواء في أخلاقه أم محاوراته، في حربه وسلمه، وفي علاقاته بالنّاس وبأهل بيته وأزواجه، ثمَّ أطلق الفكرة الإسلامية الواضحة التي تدفع المسلمين إلى الانتماء إلى النبيّ من خلال صفته الرسالية، ليكون الانتماء إلى الرسالة بالذات، وذلك في قوله تعالى: "ما كان محمَّد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين" (الأحزاب: 40)، وقوله تعالى: "وما

محمَّد إلاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزي الله الشاكرين" (آل عمران: 144).

وهكذا نجد أنَّ القرآن عندما يتحدّث عن الأنبياء الذين تقدّموا على النبيّ، صلى الله عليه وسلم، في الزمان، وينطلق من الفكرة التي لا تخرجهم من إطار البشرية، إلاَّ في نطاق الرسالة وارتباطهم المباشر بالله من طريق الوحي، فيمرون في حياة النّاس مرورًا خفيفًا، يبقي الرسالة ويخلّدها، أما هم فسيموتون كما يموت سائر النّاس، وهذا ما جعلهم يعملون لتحقيق ارتباط النّاس بالرسالة، فلم يتحدثوا عن أنفسهم إلاَّ من خلالها، كما جرت العادة، ولو في كلمة أو إشارة عمل ليتبعوها بعدهم.

ثالثًا: أنموذج للتعامل الفعال مع قضايا التاريخ

يؤكد السيد فضل الله، في هذا الإطار الأنموذج، على بعض أهم جوانب التجربة العملية لتاريخ الرسول، صلى الله عليه وسلم، المتجسدة في قيمة الصبر والصمود، من خلال تصوّر الأوضاع الصعبة والظروف القاسية، وألوان العذاب والاضطهاد والتنكيل، وما استخدم من أساليب الحرب النفسية التي تمثّلت بالسخرية والاستهزاء والتخويف والتهويل، وغير ذلك من الأمور التي اتّبعها الطغاة ضدّ الأنبياء وأتباعهم. ويشير "السيد" إلى أننا من الممكن أن نخرج، في تركيزنا على هذا الجانب الحيوي، بفوائد ثلاث:

– الأولى: التركيز على قيمة الدين في إغناء المؤمنين بالرصيد الروحي الكبير المتصل بالله، الذي يمدّهم بالقوّة ويشحنهم بالقدرة على مجابهة مواقف الاضطهاد بالصبر الهادئ والنفس المطمئنة، كما أنَّه يرتقي بالمشاعر فوق حدود المأساة، فلا يتجمدون عندها، بل تمتلئ قلوبهم بالرضا وعيونهم بالفرح الروحي ومواقفهم بالإصرار على تحويل المأساة في واقعهم الذاتي إلى تجربة تتحرّك لمنع حدوث المأساة في حياة الآخرين.

– الثانية: الإيحاء للدعاة المسلمين بواقعية المواقف الصامدة الصابرة، وقدرتها على تحقيق النتائج الإيجابية في نهاية المطاف، على أساسٍ من التجربة والإيمان.

– الثالثة: إغناء التاريخ الرسالي الحركي بالأبطال في حركة النبوات، سواء ما يتمثّل منه في بطولات الأنبياء أو في تلك التي قام بها أتباعهم من المؤمنين، إذ إننا نشعر بالحاجة الملحة إلى الأبطال التاريخيين الذين يمتزج فيهم جانب البطولة بجانب القداسة، أو الذين تجتمع فيهم معاني البطولة ومواقف التضحية في نطاق العقيدة، لئلاّ نحتاج إلى استعارة أسماء أبطال آخرين لا يمثّلون خطّ الرسالة في أساليبنا التربوية التي تعتمد في بعض مجالاتها على أسماء الأبطال ومواقف البطولات، ليجتمع للأمّة عنصر القدوة إلى جانب عنصر الفكرة.

أما أهل بيت الرسول الكريم فقد كان للسيد معهم وقفات فكرية طويلة، وقد انطلق في تحليل سيرهم ومواقفهم وتاريخهم، باعتبار أنّهم كانوا القرآن الناطق، حاملًا أقوالهم وفعلهم وتقريرهم على محمل العبرة والموعظة والتأسي الحسن، ليصل من خلال ذلك إلى تبيان وإظهار حقائق المعاني الكبيرة والدلالات العملية الغنية والإيحاءات الخصبة لسلوكياتهم وممارساتهم بما يضفي على تلك الأفعال والمواقف والأقوال صفة البقاء والديمومة ما دام الزمن حقلًا واسعًا يذخر بكنوز عظيمة. وهذا ما يفرض، كما يحدثنا السيد العلامة، على عاتق العلماء والمفكرين مسؤولية دائمة لاستثمار مختلف جوانب وفعاليات ذلك التاريخ في تكوين الرؤية والمفهوم وتصويب الموقف والدور ونصب المعايير والنظم العملية الحاكمة في ميزان التقويم والتقييم.

وانطلاقًا من هذه النظرة الحركية لموقع أئمة أهل البيت ودورهم التاريخي المتواصل والمستمر، أنشأ السيد محمَّد حسين فضل الله خطابًا مميزًا حول الأئمة، يمكن استلهامه ووعيه في تأسيس العقيدة وبناء التشريع، وصياغة الشخصية وتكاملها المعنوي والروحي، وعلى مستوى النتائج من خلال ما يمكن استفادته من أسلوب "السيد" في الدعوة والحوار وكيفية خوض الصراع وتحمل الشدائد والصبر على التضحيات، وكلّ ذلك قائمٌ على ركائز حكيمة تقدم سيرتهم أنموذجًا للأسوة الحسنة والقدوة القائدة، حتى لا تتجمَّد في التاريخ، بل لتتحول إلى مفاهيم وخطط عملية ترسم معالم الطريق وتوجه حركة الواقع.

ويتحدث "السيد" أيضًا، مثالاً على التعاطي الفعال والمنتج مع التاريخ، عن الآيات التي تشير إلى حوار سيدنا نوح، عليه وسلم، مع قومه، إذ نلاحظ أنَّه وقف أمامهم وقفة الرسول الناصح الأمين الذي يبلّغهم رسالات ربِّه ولا يملك لنفسه أيّ شيء خارج هذا الإطار، ولا يستطيع أن يغيّر أو يبدل في مهمته وفي التعليمات الموجهة إليه، لأنَّه يخاف من المسؤولية ومن العقاب كأيّ مسؤول آخر يتجاوز حدود مسؤوليته أو يتمرّد عليها. يقول تعالى: "ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه إنّي لكم نذير مبين * أن لا تعبدوا إلاّ الله إنّي أخاف عليكم عذاب يوم أليم * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلاَّ بشرًا مثلنا وما نراك اتبعك إلاَّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنّكم كاذبين * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربّي وآتاني رحمة من عنده فعمّيت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون * ويا قوم لا أسألكم عليه مالًا إن أجري إلاّ على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنَّهم ملاقو ربِّهم ولكنّي أراكم قومًا تجهلون * ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكّرون * ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرًا الله أعلم بما في أنفسهم إنّي إذًا لمن الظالمين" (هود: 25 - 31).

ويلاحظ "السيد" من خلال هذه الآيات أنَّ نوحًا لم يحاول أن يربط النّاس بذاته من خلال أيّ شيء غير عادي، بل حاول أن يبعدهم عن احتمال أيّ شيء من هذا القبيل، ممّا اعتاد النّاس أن يظنّوه أو يرغبوه أو

يزعموه للأنبياء من قوة خارقة مادية وروحية، ثمَّ انطلق يدافع عن موقفه من أتباعه الفقراء، من موقع الرسالة التي تحترم أتباعها، ومن مركز الرسول الذي لا يخذل المؤمنين، بل من الموقع الذي يخشى فيه الله القوى المسيطرة في المجتمع. ومن الواضح هنا أن القرآن الكريم، باعتباره أحد أهم المصادر التي تتحدث عن تاريخ الرسل والرسالات، وبخاصة تاريخ النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، ومبادئ وتعاليم الرسالة الإسلامية، ليؤكد لنا عمق هذه التجربة ودورها الكبير، إذ كان يرعاها ويوجهها بالتأييد تارة وبالنقد أخرى، وبالتوجيه الروحي والعملي في بعض المجالات، مما جعله يتحول إلى وثيقة مقدسة للتجربة الإسلامية الرائدة، ينطلق من الفكرة نفسها والروح نفسها والأسلوب نفسه، أي من فكرة وروحية تأصيل الجانب الرسالي في شخصية الرسل والأنبياء والأئمة، وعدم ربط الناس بجوانبهم الذاتية الشخصية. وهذا ما يمكن تعلمه على الدوام من تاريخ ومدرسة الرسول وأهل البيت، كما ورد في كتاب "السيد" "في رحاب أهل البيت"[1]، وهو أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أو الإمام علي، كرم الله وجهه، أو فاطمة الزهراء،... الخ، ليسوا كلمة نهتف بها، بل رسالة نعيشها وموقفًا نلتزمه ونورًا نستضيء به في مواجهة جحافل الظلم والكفر والجهل المطبقة على الأمة.[2]

وقد كان "السيد"، في ضوء هذا، يتحدث عن النبي وأهل البيت، وغيرهم من الشخوص والرموز التاريخية، في المنهج التحليلي المنفتح على اكتشاف المعنى الإنساني في الإسلام، والخط الحضاري في مفاهيمه وتشريعاته من أجل تأصيل الفكر الإسلامي وإبعاده عن الأسطورة والدجل والكذب والخرافة التي فرضتها ذهنية التخلف على الإسلام، وكان "السيد" يعتبر أن هذا الأسلوب الذي سلكه أسلوب التعقل والتحليل الموضوعي للقراءات التاريخية، هو الذي يمكن له إيضاح الصورة الإسلامية الأصيلة المشرقة والمستنيرة للخط الإسلامي الأصيل، ومنهج الأئمة، ومدرستهم الفكرية والشرعية، ليعرف الناس، ولا سيما الجيل المعاصر، أن التراث الفكري الذي تركوه يمكن أن يساهم في حل المشاكل الاجتماعية المعاصرة، ومشكلة الإنسان المعاصر، ورعاية تطلعاته وتحريك الخطوط الحضارية في الصراعات مع التيارات المضادة، وفي حوار الحضارات مع المفكرين المنفتحين على الحوار.[3] ويؤكد السيد فضل الله أن النظرة العلمية والعقلانية للتاريخ مهمة للغاية في استثمار تجارب الأقدمين، والتواصل المنتج مع أفكارهم وتجاربهم، وهذا أمر لا يتصل بالجانب الذاتي، بل بالخط الرسالي الإنساني الواقعي.

---

(1) فضل الله، محمد حسين: **في رحاب أهل البيت**، بيروت، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2001، ص 172

(2) يراجع بهذا الخصوص: موقع "السيد" فضل الله على شبكة الأنترنت، http://arabic.bayynat.org.lb.

(3) فضل الله، محمد حسين: في رحاب أهل البيت، الجزء الثاني، ص 6

المبحث الثاني: موقف "السيد" فضل الله من العقل والعلم:

لا تزال قضية العقل والدين، والموقف من العقل بناءً على معايير وقيم الدين، قضية حارة وإشكالية ساخنة غير محسومة إلى الآن، وقد مرت تلك العلاقة بين العقل والدين بمراحل ومنعطفات خطيرة في تاريخنا العربي والإسلامي، ولكنها بقيت أقل مما كانت عليه في العالم المسيحي. والمراجع لنص القرآن ونصوص السنة يجد أن تعاليمهما، أوصت بأخذ جانب العقل، وحضت على السلوك العقلي، ودعت دومًا إلى التدبر والتعقل، وصدّت المؤمنين عن الإيمان اللامعقول، إذ إن تسعٍ وأربعين آية قرآنية دعت الإنسان إلى التعقل، وثماني عشرة آية دعته إلى التفكّر، مضافًا إلى التشجيع الدائم على التعليم والتعلم. لذلك، فأكثر المفكرين المسلمين سطحية ومعارضة للعقل يوافقون القيمة المحدودة والمشروطة للعقل والعلم والمنطق. والنظر في كتاب "المنطق" لابن حزم، وكتاب "درء تعارض العقل والنقل" لابن تيمية، يمكن أن يدل على هذه الحقيقة بكل جلاء[4]. ومن المفيد القول إن الاتجاه السائد بين المتكلمين والفلاسفة المسلمين يعد كله محاولة مستمرة ضمن سياق الملاءمة بين العقل والدين، فمعظم الفلاسفة المسلمين نظير الكندي، والفارابي، وابن سينا، والملا صدرا "صدر الدين الشيرازي"، كانوا من أنصار مبدأ تلازم الحكمة والشريعة رغم اختلافاتهم في درجة تناغم هاتين المقولتين.[5] وقد كان الهدف الرئيس للمتكلمين دومًا الدفاع العقلاني والبيان المعقول للتعاليم الدينية، وهذا ما يمكن ملاحظته لا في كلام المعتزلة وحسب، بل في كلام الأشاعرة أيضًا. والواقع أن الأشاعرة بدفاعهم العقلي عن الإطار الفكري للحنابلة سحبوهم خطوة نحو العقل، وهناك عدد قليل من المفكرين الإسلاميين لم يوافقوا العلاقة الإيجابية بين الدين والفلسفة والتناسق بين الحكمة والشريعة، وقد كان هذا بالطبع مختلفًا عن النزعة الإيمانية في الغرب.[6]

ينهل السيد فضل الله، ضمن هذا المناخ المرتكز على الحكمة والعقلنة، من معين القرآن والحديث، وينطلق في وعيه ومقاربته لمسألة العقل والدين وقضية العقل والعلم في الإسلام، إذ يؤسس نظرته العقلية إلى العقل بناءً على القرآن الكريم الذي هو "تبيان لكل شيء"، فعندما ندرس حركة المستقبل في نشاطات الأمة بشكلٍ عام، وفي تطلعات الإسلام، فإننا نستوحي من القرآن الكريم، في مفاهيمه التي تعبر عنها آياته، أنه يخطط لصنع العقل الإنساني الذي ينفتح في أول انطلاقاته على آفاق معرفة الله تعالى؛ خالق السموات والأرض والإنسان، ومبدع النظام الكوني بكل أسراره الإبداعية التي تمثّل عمق العناصر التي يرتكز عليها الكون كله، على أساس

(4) عزّتي، أبو الفضل: **علاقة الدين بالفلسفة**، الاتحاد العلمي الديني في جامعة آذر آبادكان، 1393هـ، ص 83

(5) المصدر نفسه، ص 24

(6) جعفري، محمد: **العقل والدين في تصورات المستنيرين الدينيين المعاصرين**، تعريب: حيدر نجف، بيروت، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة الدراسات الحضارية، ط1، 2010، ص 44

أن الله تعالى جعل لكل شيء قدرًا "إنا كل شيء خلقناه بقدر" (القمر: 49)، فليس هناك في الكون أيّة صدفة، حتى ما يعتبره الناس في حياتهم الخاصة وفي أوضاعهم العامة صدفةً، فإننا عندما نتعمّق فيه، نجد أنه خاضع لنظام معيّن يتمثّل بالظروف الخفية أو البارزة التي تحيط بالإنسان وبالواقع.

ويعتقد "السيد" فضل الله جازمًا أن القرآن الكريم إنّما يستهدف صنع العقل الإنساني، حتى يرتفع هذا العقل إلى مستوى الانفتاح على الله فيما يمكن أن يعرفه منه، لأن العقل الإنساني لا يستطيع أن يقتحم ذات الله، فهي ليست تحت الحسّ أو تحت التجربة حتى يعمل الإنسان على أساس اكتشافها، ولكننا نعرف الله من خلال ما تحدّث به عن نفسه، ومن خلال خلقه وآياته في الكون. ولذلك جاء في كثير من الآيات القرآنية استخدام مصطلحات التفكير العقلي الأساسية من قبيل: "يعقلون"، "يتفكرون"، "يتدبرون"...الخ.

ويجد "السيد" في القرآن الكريم المخطط للمنهج الإسلامي بهدف صنع العقل وتنميته وتطويره ومنحه الحرية، لأن الله سبحانه وتعالى لم يمنح الحرية المطلقة لأعضاء الإنسان، بل جعل لكل عضو حدودًا لا يجوز له أن يتجاوزها، سواء في العينين فيما ينظر إليه، أو في الأذنين فيما يسمع بهما، أو في يديه ورجليه وكل أجهزة جسمه، إذ جعل الله لكل واحدٍ من هذه الأعضاء حدودًا، ولم يطلق الحرية المطلقة إلا للعقل، فالإسلام أعطى للعقل حريته في أن يفكر في كل شيء، ولم يجعل له آفاقًا ضيّقة يحشر في داخلها، بل إننا عندما نقرأ القرآن الكريم وندرس الآيات التي تذكر العقل، نجد أنه يقحم العقل في كل أوضاع الكون الإنساني؛ في تطلعات الإنسان في نفسه، وفي الكون من حوله. فقد قال الله تعالى للعقل كُن حرًا، فكّر في ما تريد، ليست هناك حدود لتفكيرك، فكر في الله، فكر في كل ما يقوله الآخرون وما لا يقولونه، ولكن تحمّل مسؤولية فكرك، بحيث تجعله ينطلق في الخطوط التي يمكن لها أن تنتج النتائج الإيجابية وأن تصل إلى الحقّ، لأنّ كل إنسان سيقف غدًا بين يدي الله تعالى ليقدّم حساب عقله قبل أن يقدم حساب جسده، لأنّ أيدينا وأرجلنا وجلودنا وألسنتنا ستشهد علينا يوم القيامة، أما العقل فعلينا أن نقدّم شهادتنا عنه أمام الله، كيف فكر وعلى أي أساس، وما هو منهجه، وكيف وصل إلى هذه النتيجة الإيجابية أو تلك النتيجة السلبية.

وورد في المأثور: "أنَّ الرسول عقلٌ من خارج، والعقل رسولٌ من داخل"، هذا النوع من التزاوج بين العقل والرسول، يجعل الرسالة عقلاً. وبذلك، فإن الرسالة لا يمكن أن تلتقي بالخرافة، ولا يمكن أن تلتقي بالتخلّف، أو تلتقي بالجهل، بل إنَّ الرسالة تحتضن العقل وتختزنه من أجل أن تغيِّر العالم على صورتها. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ" (الأنفال: 24)، وقال الله تعالى: "إياك آمر وإياك أنهى، وبك أثيب وبك أُعاقب" عندما يقوم الناس لربِّ العالمين يقف العقل، وتتحرك كل العقول أمام

الله تعالى لتقدم حساباتها بين يديه تعالى، بأن: هل استطاع العقل أن يعقلن مسيرته، أم أنَّه أعطى مسيرته خطأً لا يلتقي بحسابات الفكر، على طريقة لهم قلوب لا يعقلون بها؟

ويرى "السيد" أن سلوك طريق التفكير العقلي، أي تحريك قيمة العقل في كل فاعليات الحياة، لابد أن ينتج العلم، سواء أكان العقل التأملي أم التجريبي، لأن التجربة وإن كانت تتحرك بالحسّ، إلا أنّ الحسّ لا يمكن أن يعطي الفكرة إلا من خلال العقل الذي يمد هذه التجربة المحدودة إلى كل ما يماثلها، كما ورد في الفكرة أو القاعدة الفلسفية: إن حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد. والنصيحة التي يقدمها "السيد" لعموم الناس هنا هي في ضرورة انفتاحهم الدائم على العقل، بأن يمتلكوا أسس التفكير العقلي الذي يطلق إمكاناتهم وقدراتهم المنظورة وغير المنظورة على طريق إنتاج العلم والفكر، ويحرك تأملاتهم في الآفاق، ويطلق تجربتهم في الواقع الذي يعيشه الإنسان، وذلك من خلال المستويات التالية:

أولًا: العقل ودوره الجوهري في قراءة الحياة والكون واستقرائهما

يعتبر السيد فضل الله أن الله أراد لنا أن نقرأ في كتاب الكون الذي يتمثّل بالظواهر الكونية الهائلة التنوع والكم، لنتعرف من خلال تلك القراءة الواعية إلى طبيعة هذا النظام الكوني، لنفهمه وندرس معالمه، ولنفهم ما يختزنه من أسرار وقوانين ونظم، من أجل أن نمنح الإنسان من خلال هذا التدقيق في أسرار الكون شيئًا جديدًا يتصل بكل جوانب حياتنا، سواء فيما يتعلق بالمرض والعافية، أو فيما يتعلق بحركة الإنسان في تطوير المادة أو فيما يتعلّق بكلّ أوضاع الحياة. وهذه القراءة، يتابع "السيد"، يمكنا أن تعطينا وعي ما أنتجه الآخرون، من خلال ما أطلقوه من تأملات وما قاموا به من تجارب، ومن الطبيعي أن تكون هذه القراءة قراءةً واعيةً مفكرةً علميةً لا تحدّق في الكتاب "تحديقة" ساذجة، بل تحاول أن تدرس ما في الكتاب، لتنقد ما ينبغي نقده، ولتقبل ما يمكن قبوله، لأن الآخرين قد يخطئون في تأملاتهم عندما يتأملون، وقد ينحرفون في تجاربهم أو في استنتاج التجربة عندما يجربون.

ويؤكد "السيد"، في هذا السياق، على ضرورة أن نعطي الغريزة، وما يمكن أن ينتج عنها من انفعالات وعواطف، جرعةً من العقل، لنوظِّفها في طبيعة حاجة الحياة إلى الغريزة في استمراريتها وحيويتها، ولكن مع التوازن في حركتها وواقعها، ولا بد كذلك من أن نعطي العاطفة جرعة من العقل، لتتوازن وتتأصَّل، لأنّ الإنسان قد يجمح في عاطفته، فيحب دون حساب، ويبغض دون حساب. ولذلك، يأتي العقل، كما يرى "السيد"، ليخاطب في الإنسان أساس العاطفة، فما هي العناصر التي تجعله يحب الآخر أو يحب الشيء؟ وما هي العناصر المادية؟ وما هي العناصر الروحية؟ وما هي الأسس التي يرتكز عليها حبُّه؟ لأنّ الحبَّ لا بد من أن يكون مفتوح العينين، ولا يجوز أن يكون أعمى، لأنّ العمى في الحبِّ يجعل الإنسان يتخبَّط ويسقط في كل

المهاوي، ويجعل حبه حبًا فوضويًا غير متوازن. وهكذا عندما يبغض، لا بد من أن يعرف العناصر التي تبرّر له هذا البغض، حتى لا يكون الحب حالة انفعال والبغض حالة انفعال، بل ليكون الحب، أيّ حب، منطلقًا من حبه لله تعالى، ومن حبه لرسل الله، ومن خلال هذا الحبّ ينطلق حبه للناس من حوله، وحبه للحياة ولما يلتذ به ويحلو له، حتى يكون حبه منطلقًا من دراسة، بحيث يقترب من معادلة (1+1=2)، وليس الحب كيفما كان، ولا الحب من خلال نظرة طارئة أو من خلال لذة آنيّة، لأنّ اللذة تزول، والنظرة تختفي.[7]

ويعتقد "السيد" أننا في حاجة ماسة ودائمة إلى أن نعقلن كل شيء عندنا، أن نعقلن الفكر حتى لا ينطلق من السطح، بل من العمق، وحتى لا يختلط بالخرافة، كما أدخلها البعض في الفكر والدين، وحسبوها فكرًا ودينًا، فعاش العالم المتخلّف هذا الخلط، وقدّس الخرافة باسم الدين. وعلينا أن نعقلن وعينا وفهمنا للدين، وتصوّرنا له، من خلال الفهم العقلاني الثقافي المتوازن، الذي يجعلنا نفهم الدين بجذوره العقلية والفكرية. ولا يرى "السيد" الإيمان فوق العقل كما يراه بعض أتباع الديانات، بل إن العقل هو الذي ينتج الإيمان، ولا عمق لإيمان لا يرتكز على العقل. نحن نؤمن بالله تعالى لأن العقل قادنا إلى وجوده، وقادنا إلى توحيده، فنحن وحّدناه لأنّ عقلنا اكتشف توحيده، ونحن عبدناه لأن عقلنا اكتشف عبوديتنا له وطاعتنا له.

واستخدام العقل، من منظور "السيد"، يجب ألا يقتصر على الجوانب السابقة، بل لا بدّ لنا من أن نعقلن مجمل الحياة الاجتماعية التي نعيشها ونمارس فيها التزاماتنا الفكرية والعملية الذاتية والموضوعية تجاه أنفسنا وتجاه الآخرين الذين نتقاسم معهم الهواء والماء والطعام والشراب، حتى لا نسقط في خطِّ العصبية العمياء، بل لنتحرّك على أساس نظم وخطوط وقواعد، تجعل من المجتمع جسمًا واحدًا، ينطلق كلُّ أفراده لتحقيق الأهداف الكبرى للمعنى الاجتماعي في المجتمع الذي يؤكِّد قضاياه الكبرى، كما يؤكِّد للأفراد قضاياهم الحيوية. ولا بدّ أيضًا من أن نعقلن السياسة، حتّى لا تكون انفعالًا وحالةً طارئة وعاطفة، بل لتكون خطة تدرس كل حاجات الإنسان وأهدافه ووسائله، بطريقة عقلانية تحسب حساب القوة والضعف، والربح والخسارة، والبداية والنهاية.

ولذلك، فإنّ عقلنة السياسة تفرض ألّا يستقلّ بالسياسة أفراد ينطلقون من خلال ذاتية فكرهم، ليتبعهم الناس تصفيقًا وتهليلاً وتكبيرًا واتّباعًا أعمى. إنَّ عقلنة السياسة تعني أن يكون لكل شخص ممن تتصل حياته بالسياسة، فكرٌ سياسيّ وخطّ سياسيّ، وأن يتعرَّف مواقع السياسة عندما يرتبط الداخل بالخارج، وعندما تندمج القضايا الإقليمية بالقضايا الدولية، وعندما تتحرك مصالح المستضعفين في مواقع مصالح المستكبرين. وألّا تكون

---

[7] جزء من محاضرة تحت عنوان: "تربية العقل بين الإيمان وتحديات العصر"، ألقاها "السيد" في مؤتمر المبرات السادس عشر، بتاريخ 1426/7/3 هـ - 2005/9/7م.

السياسة تقليدًا، بل تكون إنتاجًا وإبداعًا، وألّا نتحرك لأنّ الآخرين يريدون منا أن نتحرك، بل لأننا نحن نريد ذلك، ولأنّ الآخرين الذين ربما يملكون موقعًا في مركز القيادة، لا بُدَّ لهم من أن يتكاملوا معنا.

وعندما يسير الإنسان على هدى العقل المستنير فإن ذلك يمكن أن يهيّئ له مستقبلاً كبيرًا في مستوى القوّة وفي مستوى العنفوان، وقد ورد عندنا حول مسألة التفكير الذي هو نتيجة العقل: "تفكر ساعة خير من عبادة سنة"، لأن هذه الساعة تضيء للإنسان معنى عبادته ومعنى إيمانه ومعنى حياته، كما يؤكد "السيد". ولذلك اقتضى الواجب من كل الناس، من هم في مواقع الدعوة والتربية والقيادة والتخطيط خاصة، أن ينمّوا عقولهم بالفكر والتأمّل والتجربة المستمرة والممارسة العقلية النقدية الواعية، وأن يدرسوا كلَّ خطوة ليتعرفوا إيجابياتها وسلبيّاتها، وأن يبتعدوا عن التقليد والتبعية والتلقين.

ونلاحظ أن السيد فضل الله يركز دائمًا على أهمية استخدام العقل وخوض تجربة ومنهجية التفكير العقلي في كل ما يتعلق بشؤون الإنسان الخاصة والعامة، وهو يضرب المثال النبوي التالي الوارد في القرآن لإظهار الفرق بين استخدام المنهج العقلي الهادئ وبين اتباع أساليب الانفعال والتوتر النفسي والعملي، فقد تحدث اللّه سبحانه وتعالى في بيانه للنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، عندما كان قومه في مكّة يثيرون الغوغاء حوله، فينطلق أحدهم في مكّة ليقول عنه إنه مجنون، فتنطلق بذلك الهتافات. فاللّه سبحانه وتعالى علّم النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، الأسلوب العقلاني الذي يحاول به إثارة التفكير بعقل هادئ. فهناك قضيّة واحدة تُمثِّل المنهج في فهم الأشياء، المنهج الذي يستطيعون من خلاله أن يفكّروا باستقلالية وموضوعية وبطريقة علمية، فقال لهم: "قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يديْ عذاب شديد" (سبأ: 46) فأراد لهم أن ينفصلوا ويتفرّقوا فردًا فردًا، واثنين اثنين، عن ذلك التجمّع المحموم الذي ينطلق بوحي العصبية العمياء، والذي يتحرّك فيه الأفراد من خلال الحُمّى التي تسود كل مشاعر المجتمع وأحاسيسه، ليتفكّروا ما بصاحبهم من جُنّة، ولكنّه النبيّ الذي يريد لهم الهداية لطريق الخير في الدنيا والآخرة.

من هنا يتضح أن "السيد" يريد من المجتمعات المسلمة أخذ درس عملي من هذا التوجيه العقلاني الرباني، إذا صح التعبير، في كلِّ واقعها السياسي والاجتماعي والاقتصادي، إذ هناك ما يسمى في علم النفس بمصطلح "العقل الجمعي" الذي يشير إلى أن الفرد عندما يكون ضمن الجماعة فإنّه يتحرّك بشكل يختلف عمّا لو كان فردًا، بحيث يتأثر الفرد بالجماعة، لأن الجماعة عندما تُسيطر على الساحة، فإنها تجعل الإنسان ينجذب غريزيًا إلى ما تطرحه، فيفقد بذلك استقلاله الفكري، ويصبح جزءًا من الحمى الجماهيرية.

ويشير "السيد"، في معرض شرحه للآية السابقة، إلى أن الله تعالى علّم رسوله أن يقول لهم: إنكم لا تستطيعون التفكير باستقلال، سواء قلتم إني مجنون أو عاقل، ما دمتم تعيشون الحُمّى العصبية والعدوانية التي تسيطر عليكم من خلال بعض الأشخاص، فتنطقون كما ينطقون، وتهتفون كما يهتفون، فارجعوا إلى عقولكم، "أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ" يعني أن تنفتحوا على الحقيقة أمام الله سبحانه وتعالى بعيدًا عن أي مؤثرات عاطفية أو انفعالية وما إلى ذلك، "مَثْنَى" اثنين اثنين، "وَفُرَادَى" واحدًا واحدًا، "ثمّ تتفكّروا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ" لأن الفرق بين العاقل والمجنون، هو أن العاقل يتكلم بطريقة عقلانية منطلقة من قاعدة فكرية وخط دقيق متوازن، ويتحدّث بحسب دراسة الظروف المحيطة والقضايا التي تثار في المجتمع، فيختار ما ينفع المجتمع، والنبيّ، صلى الله عليه وسلم، يقول، بحسب القرآن، ادرسوا كلماتي وطريقتي في التعامل والدعوة دراسةً موضوعيةً هادئة، لتعرفوا أن "مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّة" فكل ما فعلته هو أنّي أنذرتُكم في شرككم وكفركم وفي تمرّدكم على الله وفي عبادتكم للأصنام "إِنْ هُوَ إِلاّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ"[(8)].

ويتحدث "السيد" في إحدى مواعظه عن حالة الاستقلال الروحي والفكري للإنسان، وأهمية بناء قناعة وإيمانًا ذاتيًا حقيقيًا حرًا وغير تابع لهذه الجهة أو تلك، أي أنه يدعو إلى رفض التقليد والتبعية باعتبارها حالةً مضادة للعقل والتفكير العقلي، وذلك من خلال هذا الحوار القرآني الذي يعرض الله تعالى لنا فيه ماهية الحوار الذي يدور بين الجيل الأول والجيل الآخر يوم القيامة، عندما يكون الجيل الأول جيلًا ضالًا فيفرض ضلاله على الجيل الآخر، لأن الجيل الآخر يتبعه ويسير في مسيرته ويقلّده في كلّ شيء، كما درج عليه كثير من الناس في أنهم يقلِّدون آباءهم في عاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم من دون أن يناقشوها ومن دون أن يتأمّلوا فيها، كما لو كان آباؤهم معصومون، ويرصد "السيد"، من خلال متابعته الدقيقة لحركة المجتمع، كيف أنه لا يزال فريق من الناس في عالمنا هذا عندما تحدثهم عن عاداتهم التي ساروا عليها، وأنها عادات ضارّة وليست نافعة ومتخلّفة، يقولون هذه عادات آبائنا وأجدادنا، وأنهم غير مستعدين للدخول في مناقشة. هذا هو الذي يجعل الأجيال الجديدة تدخل في الضلال، باقتدائها بالأجيال القديمة.

ويؤكد "السيد" على أن القرآن الكريم واجه وحارب هذه المسألة، وطالب الناس بعدم الخضوع لها، وتحدث عن هؤلاء الذين إذا سُئِلوا عن ما هم فيه من الكفر والضلال قالوا: "إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون" (الزخرف: 23)؛ أي نحن اتبعنا آباءنا، وقد ربّانا آباؤنا على هذه العادات والأفكار والتقاليد.

---

(8) راجع نشرة: فكر وثقافة، السنة السابعة: 4 جمادى الآخرة/ 1424 هـ، 2آب/ 2003م، العدد: 314

وينقل لنا الله سبحانه وتعالى عن الأنبياء عندما كانوا يقفون ضد هذه الفكرة في الآية الكريمة: "قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم" كان آباؤكم يفكرون بهذه الطريقة، فما رأيكم أن آتيكم بطريقة أخرى أكثر وعيًا وهدايةً وصوابًا وصحةً مما درج عليه الآباء، "قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون" (الزخرف: 24) وفي آية أخرى يقول الله تعالى: "أوَلو كان آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون" (المائدة: 104) يعني حتى لو كانوا جاهلين وكنتم متعلمين، هم لم يتعلموا وأنتم تعلّمتم، مثلما قال إبراهيم لأبيه: "يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتِك فاتّبعني" (مريم: 43)، هذا العلم الذي عندي ليس موجودًا عندك. والجاهل يجب أن يتّبع العالِم، وليس على الصغير أن يتّبع الكبير، فقد يكون الصغير أكثر علمًا من الكبير.

وفي تفسيره وتحليله القرآني لهذه الظاهرة يتحدث السيد فضل الله عن أن الله يعطينا صورة عما كانت عليه أحوال هؤلاء الناس، عندما تلتقي هذه الأجيال الكافرة أو الضالة في النار، وكيف يسير الحوار بينهم، يعني كما يحصل حوار بين أهل الجنة وأهل النار، يحصل حوار بين أهل النار أنفسهم، وقد حدّثنا الله عن هؤلاء كيف كانوا منحرفين عن خط الهدى بقوله: "فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا"، أي نسب إلى الله شيئًا لم يقله ولم يشرّعه "أو كذّب بآياته" (يونس: 17)، أو أنه عندما جاءه الرسل وتلوا عليه آيات الله كذّب بها ولم يصدّقها ورفضها، "أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب" يعني نصيبهم من المسؤولية، "حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله"، أين هؤلاء الناس الذين كنتم تعبدونهم من دون الله، والذين كنتم تتبعونهم وتطيعونهم في معصية الله؟ دعوهم يخلّصوكم، نحن نريد أن نقبض أرواحكم الآن، فليخلّصوكم إذا كانوا هم شركاء لله تعالى، "قالوا ضلّوا عنا" ليسوا موجودين، "وشهدوا على أنفسهم"، عندما وجدوا أنه لا يوجد أحد من كل هؤلاء الذين عبدوهم وأطاعوهم في معصية الله، فلم يجدوهم عند الحاجة وعند الحسرة، "قال ادخلوا في أُممٍ قد خلت من قبلكم من الجنّ والإنس في النار"، يعني أن هناك من كان قبلكم من الإنس والجن ممّن ساروا على خط مسيرتكم في أنهم عبدوا أشخاصًا من دون الله وأطاعوهم وعصوا الله، ادخلوا معهم في النار، "كلما دخلت أمّة لعنت أختها"، يعني كل جيل يدخل إلى النار يستقبله هذا الجيل باللعن، "حتى إذا ادّاركوا فيها جميعًا"، يعني اجتمعوا فيها والتقى كل جيل مع الجيل الآخر، "قالت أخراهم لأولاهم" قال الجيل الجديد للجيل القديم، عندما أرادوا أن يتخلصوا من المسؤولية، وأرادوا أن يحمّلوا المسؤولية لهؤلاء الذين سبقوهم بالضلال وتركوا تأثيراتهم الفكرية والعملية عليهم، قالوا: "ربنا هؤلاء أضلّونا"، هؤلاء السبب في ضلالنا، لولا ضغوطهم ووسوستهم واستغلالهم للظروف الصعبة التي كنا نعيشها، ولولا استكبارهم واستضعافنا، لكنّا سرنا على الخط الصحيح، "هؤلاء أضلّونا فآتهم عذابًا ضعفًا من النار"، آتهم عذابًا لأنهم ضالّون، وعذابًا آخر لأنهم أضلّونا، فهم قاموا بجريمتين فماذا كان الجواب؟ "قال لكلٍ ضعف"، كل فريق أضلّ الفريق الذي بعده "ولكن لا تعلمون"، لأن الله خلق لكم عقلاً كما خلق لأولئك عقلاً. فلنفرض أنك ورثت بعض الأفكار، ولكن الله أعطاك

عقلاً، فلو أنك ما زلت صغيرًا لكنت غير مكلّف ولا تستطيع أن تفكر، لكن عندما يكتمل عقلك وتنفتح ثقافتك، تصبح قادرًا على مناقشة الأمور، فمثلما تناقشون بعضكم بعضًا، تستطيعون أيضًا أن تناقشوا الأجيال التي سبقتكم، فلماذا لم تفكروا؟ إن الله أعطاكم عقلاً، فلماذا لم تستخدموه، ولم تعقلوا به الأشياء؟ والله أعطاكم سمعًا، فلماذا لم تستمعوا إلى آيات الله؟ والله أعطاكم بصرًا، فلماذا لم تبصروا آيات الله في الكون ولم تقرؤوا القرآن والوحي؟ "وقالت أولاهم لأخراهم"، أجابوهم "فما كان لكم علينا من فضل" نحن لسنا مسؤولين عنكم، فهناك فرق بيننا وبينكم، فالله أعطانا عقلاً لم نستعمله أو استعملناه بالشر، وأنتم أعطاكم الله عقلاً واستعملتموه بالشر أيضًا، فلماذا اتبعتمونا، نحن نستطيع أن نضغط على أجسادكم وأن نضغط عليكم في حاجاتكم، ولكننا لا نستطيع أن نضغط على عقولكم، "فما لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنت تكسبون" (الأعراف: 37-39)، فكل جيل يتحمّل مسؤوليته.

وعلينا أن نعرف من خلال ذلك كله حقيقة جوهرية، وهي أن على الإنسان أن يعتبر أن عقله هو حجة الله عليه، فالله خاطب عقلك وجعل العقل أساسًا في أن يثيبك إذا سرت على خط الهدى، أو يعاقبك إذا سرت على خط الضلال، وقد ورد في الحديث عن النبي، صلى الله عليه وسلم: "أن الله لما خلق العقل قال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقًا أعزّ عليّ منك"، يعني أن العقل الذي وهبه الله للإنسان هو أعزّ الخلق عليه وأحب الخلق إليه، لأن العقل هو الذي يدرك الحقائق، فبالعقل نعرف ربنا، وبالعقل نعرف نبيًّا، وبالعقل نعرف الحق من الباطل ونعرف الحسن من القبيح، فهو الذي يربطنا بالحقيقة ويبعدنا عن الخرافة وعن الباطل، "إياك آمر وإياك أنهى"، فهو يخاطب عقلك، حتى يقول لك عقلك لا بد لك أن تستجيب لهذا الأمر، لأن لله عليك حقًا في الطاعة، ولأن المعصية تمثل التمرد على الله، وفي ذلك العقاب الذي تستحقه من الله سبحانه وتعالى، "وبك أثيب"، عندما يتحرك عقلك في خطِّ الحق وفي خط الهدى والصواب، "وبك أعاقب"، عندما ينحرف العقل عن الطريق المستقيم.

ويرى "السيد"، في ضوء هذا، أنّ على الإنسان أن ينمي عقله بالتفكير والتأمل والتجربة والقراءة والحوار، فكما ينمي جسده يوميًا بالأكل والشرب النافع والمفيد الذي يحتوي الفيتامينات ويبتعد أيضًا عن الأشياء المضرة حتى ينمو جسده نموًا طبيعيًا، كذلك لا بد لنا من أن نربّي عقلنا، بأن نفكِّر في كلِّ شيء يعرض علينا، وأن نستفيد من تجاربنا وتجارب الآخرين. ويدعو "السيد" كل الناس إلى أن يمتلكوا ويحوزوا العلم النافع، كلّ بحسب ظروفه وأوضاعه، لأن العلم معرفة بالنفس والحياة والواقع والطبيعة والمحيط السياسي والاقتصادي الذي نعيشه حاضرًا أو يمكن أن نخطط لنعيشه في المستقبل القريب أو البعيد. والعقل، في نظر "السيد"، هو المعيار الحقيقي للوعي والتخطيط والبناء الحضاري والإنساني المزدهر والمتطور في كل مفرداته ومواقعه، والواجب يقتضي من الكل المجتمعي، خصوصًا من هم في مواقع المسؤولية، أن يعملوا على

تنمية عقولهم وأن يسألوا عن كل ما يمكن أن يسمعونه من كلام، وأن يناقشوا ما يعرض عليهم من أفكار، حتى يقتنع العقل بها أو يرفضها. لهذا كونوا أحرارًا، ومشكلة كثير من الناس أنهم عميان، لا عمى النظر، كما يقول القرآن: "فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور" (الحج: 46)[9].

ثانيًا: العلاقة بين العقل والخالق

يؤكّد "السيد" أنه لا يمكن تصور وجود عقل يحترم نفسه لا يؤمن بالله، لأن مسألة وجود الله تمثّل العنصر الذي يبرّر وجود الكون، فلو درسنا طبيعة هذا الكون المادية، سنجد أن كل مفردة من مفرداته لا تحمل في داخلها جذورًا حتمية لوجودها. ولكن المناطقة أو الفلاسفة يقولون "إن الممكن هو الذي يكون وجوده ليس ضروريًا وعدمه ليس ضروريًا"، يعني لو لم يوجد فلا مشكلة، أي أننا نفرض أن الجبال لم تكن موجودة، فهل هناك حتمية تفرض وجودها بحسب طبيعتها، أو كان وجودها ليس حتميًا، وعدمها ليس حتميًا، فهل يمكن أن توجد؟ ولو انطلقنا للبحار وللأنهار وللإنسان وكل هذه الكائنات، فهل وجودها حتمي أم ليس حتميًا؟ وهل عدمها حتمي أم ليس حتميًا؟ وهكذا، فإذا كانت كل الأشياء تتساوى فيها فرضية الوجود والعدم، فمن الذي يرجّح جانبها الآخر؟ فإما أن تكون الأشياء بحسب طبيعتها تحمل في داخلها حتمية الوجود فنقول إنها حتمية في ذاتيتها، أو إن كل الأشياء تتساوى عندما ندرسها في ذاتها من حيث الوجود والعدم، وعند ذلك فإن فرضية الوجود تساوي فرضية العدم، الأمر الذي يتطلب وجود قوة من خارج ذاتها يغلّب جانب الوجود على جانب العدم. إن هذه القوة هي الله تعالى، وهناك من الناس من يسأل عن الله من أوجده؟ هل أوجد نفسه؟ ومن الطبيعي أنه لو لم يكن الإله لما كان هناك كون، كون فرضية وجود الإله هي التي تبرّر وجود الكون. وإذا كنا نعرف بأن الكون ممكن لأنه تحت تجربتنا، إلا أننا لا نستطيع أن نقول بأن الله ممكن، لأن الله ضروري في تبرير الكون، ولذلك يجب أن يكون الله واجب الوجود، فهو يختزن في داخل ذاته حتمية وجوده، لأننا عندما نريد أن نتسلسل، نقول إن الكون خلقه الله، ولنفرض مثلًا أن هذا الذي نسميه الله خلقه شخص وهكذا، فلا بد في النهاية من أن نصل إلى شيء ثابت ولا نظل معلقين في الهواء. لا بد أن نصل إلى مصدر الخلق وإلّا لا نجد شيئًا. ولا بد أن يكون الله "واجب الوجود"، وكل شيء نتصوره "ممكن الوجود"، فهو ليس الله، فالله سبحانه هو الذي نتصوره عندما نسير مع سلسلة الفرضيات إلى آخر السلسلة، فلماذا يشك الناس في هذه المسألة؟ وفي الواقع أنا أحتاج إلى خالق لأن وجودي ليس وجودًا ينطلق من حتمية ذاتية، فلو لم أوجد لما كانت هناك مشكلة، ولو وجدت لما كانت هناك مشكلة، لكن الله لو لم يوجد لما وجد الكون.

---

[9] خطبة الجمعة، بيروت: 8/4 /2004م. راجع نشرة **بينات**، نيسان 2004

فلا بد من أن يميّز العقل من خلال الفطرة السليمة، ومن خلال التجارب المعيارية الصحيحة، لأن هناك عقل التجارب، وعقل الذات، وكلاهما ينطلقان من عند الله سبحانه وتعالى، لكن البعض لا يستسلم لفطرته، ولا يستسلم لدراسة موضوعية للمسألة، فنحن لا نريد أن نقول للعقل سلّم من دون أساس، بل نقول للعقل شكّك في كل شيء، لأن الشك طريق العقل، علمًا بأن الأسلوب القرآني مع المخالفين له كان أسلوب الشك "وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين" (سبأ: 24) ومعنى ذلك أن الله يعلّم النبي، صلى الله عليه وسلم، أن يكون أسلوبه هو أن يقدم نفسه للطرف الآخر شاكًا وهو "الذي جاء بالصدق وصدق به" (الزمر: 33) لكنه أسلوب حوار يشمل شكًا آخر، فإذا انطلق شخصان يبحثان عن الحقيقة فسيلتقيان باليقين، وفي هذا المجال نحن نقول إن هناك شكًا سلبيًا وشكًا إيجابيًا، والشك السلبي هو شك الإنسان الذي يريد أن يشك ولا يريد أن يتحرك، والشك الإيجابي هو الشك الباحث، وهو الشك المتأمل، ولا بد أن يصل إلى نتيجة[10].

ثالثًا: العلاقة بين العلم والدين

تحفل أحاديث وندوات وكتب "السيد" بكثير من البحوث والتحليلات والتعليقات والاستشهادات الدّالة على أهمية موقع العلم والعلماء، وعلى الدّور المميّز والحيوي الذي ينبغي أن يقوم به ويلتزمه العلماء في الإسلام، وعلى أفضلية العالم على الجاهل بدرجات كثيرة. والعلم الذي يتحدث عنه "السيد" هنا لا يقتصر على الدين، وإنما يتعدّاه إلى العلم الطبيعي المادي الذي حققت البشرية من خلاله تطورات وقفزات نوعية هائلة في مسيرتها الحياتية. ويلاحظ "السيد" هنا أن المشكلة كانت تتحرك، على صعيد التاريخ الإسلامي في مواقف المسلمين أو مواقعهم، في خطين هما: مشكلة عمل بدون علم، ومشكلة علم بدون عمل. فهناك كثير في هذا التأريخ ممن تخشع لتقواهم ولإخلاصهم ولكنك تكتشف أنها تقوى تفتقد عمق الوعي، أو أنه إخلاص افتقد العلم والمعرفة، وهؤلاء كثر في مجتمعنا الإسلامي. وقد عاش هذا المجتمع ولا يزال كثير من مشاكل هؤلاء لأنهم قد يحصلون على الثقة الاجتماعية بين المسلمين من خلال عملهم فتفرض هذه الثقة على الواقع الإسلامي جهلهم.

وهناك الأشخاص الذين يملكون العلم أرحبَ ما يكون العلم، ولكنهم لا يملكون العمل ولا يملكون مسؤولية هذا العلم ورساليته إلى المجتمع من خلال ما يفرضونه عليه بالثقة بهم من خلال علمهم ولكنهم يسيئون إلى مسيرته من خلال انحراف خط العلم عندهم عن خط العمل. ولعلّ الكلمة المشهورة التي لم ندقق في سندها عن الإمام علي: "قصم ظهري اثنان جاهل متنسك وعالم متهتك" تمثل واقع المسيرة الإسلامية كلّها.

(10) راجع نشرة **فكر وثقافة**. (موقع "السيد" على شبكة الانترنت: http://arabic.bayynat.org.lb).

رابعاً: منهجية السيد فضل الله في تحليل ودراسة العقل والتفكير العقلي

يمكننا، في ضوء ما تقدم، أن نحدد هنا بعض المعالم الفكرية للمنهجية التي يعتمدها "السيد" في موقفه العملي من مسألة العقل والعلم والعلاقة بينهما وبين المسألة الدينية.

أ. العقل هو معيار وحجة ورسول باطني داخلي، وهو جوهر روحاني وهبة من الله تعالى للإنسان.

ب. العقل مصدر أساسي من مصادر التشريع الإسلامي، وما يحكم به العقل يحكم به الشرع، والعكس صحيح.

ج. العقل أساس تطور الإنسان والمجتمعات والحضارات والأمم.

د. تغذية العقل وتنميته لا تتم إلا من خلال التأمل والتفكير والتدرب واكتساب الخبرات العملية الميدانية في كافة المواقع الحياتية على المستوى الشخصي أو الاجتماعي.

ه. العقل المؤهل والمدرب هو القادر على تأويل النص الديني المتشابه بعد عرضه على محكم الكتاب.

و. العقل قادر على التمييز والتفريق بين الحسن والقبيح، بين الحق والخير إذا ما ترك على فطرته وسليقته الأولى، أي أن للأفعال حسنًا أو قبحًا ذاتيًا وقبل ورود الشرع، وأنّ بإمكان العقل أن يدرك ذلك، فالعدل، مثلًا، حسن في ذاته، والظلم قبيح في ذاته، وبمقدور العقل أن يدرك حسن ذاك وقبح هذا.

ز. الإدراك العقلي يمكنه القيام بأعمال التجزئة والتحليل والاستنتاج والحكم ومعرفة المفاهيم الكلية والإبداعية العامة لفهم معايير البناء والتكامل، وإدراك الحقائق والقوانين الخاصة والعامة.

ح. العلاقة بين النص والعقل علاقة تكاملية منتجة وفاعلة وليست علاقة تنابذية متضادة. صحيح أن هناك فارقًا ذاتيًا في جوهر الممارسة العملية تنتج نوعًا من التمايز المنهجي بين مرجعية العقل ومرجعية النص، ولكن هذا الحد الفاصل أو الفارق التطبيقي العملي لا ينعكس سلبًا على دور كل منهما، بل يجعل منه تمايزًا إيجابيًا منتجًا كما ذكرنا.

ويشير "السيد" على الدوام إلى الأهمية الكبرى لتلك العلاقة التفاعلية التكاملية بين النص والعقل من خلال هذا الحديث الذي يركز سماحته عليه ويكرره باستمرار في معظم أحاديثه وندواته نظرًا لأهميته في حياتنا، المروي عن الإمام الكاظم: "إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأمّا الباطنة فالعقول." (الكافي: 16/1) لا يصل هذا التمايز إلى مستوى القطيعة أو التضاد

والتناقض المنطقي بين المنهجين، بل إن افتراض هذا التنافر أو التضاد بين المنهجين كما يبدو من بعض المثقفين ليس بَريئًا ولا هو مجرد اشتباه، بل هو متعمد يهدف إلى الإيحاء بأن اتباع النص الديني هو عمل غير عقلائي ولا يملك مشروعية في نظر العقل، ووجه الخلل أو المغالطة في افتراض التضاد بين المنهجين المشار إليهما كأنما هما خطان متوازيان لا يلتقيان، واضح لا يكاد يخفى فالعقل هو الذي يقود للإيمان بالوحي، وهو الذي أرسى أساس حجية النص، فكيف ينافيه أو يضاده؟ وهل ينافي أو ينفي الشيء ذاته؟

ويلعب الوحي في المقابل، كما يشير "السيد"، دورًا مهمًا في موازرة العقل وترشيده وإعادته إلى صفائه الفطري عندما تعلوه التراكمات وتغزوه المؤثرات، فتشوش رؤيته وتعرقل فاعليته وتمنعه من بلوغ غاياته في اكتشاف الحقائق، وقد كان علي بن أبي طالب واضحًا عندما أكّد على أن واحدة من مهام الأنبياء والرسل، أنهم ينفضون الغبار ويزيلون الركام عن العقل، كما جاء في أول خطبة من خطب نهج البلاغة، وهو بصدد بيان مهام الأنبياء ووظائفهم: "ويثيروا لهم دفائن العقول".

إننا نلاحظ بشأن منهجية السيد فضل الله في تناوله لقضايا الحياة المعاصرة على تنوعها واختلافها وتناقضاتها وتعدد مشاربها واختلاف انتماءات أصحابها، أن "السيد" يركز بقوة على العقل المتفاعل بالدعم والتكامل والمؤازرة مع النص، فهو مستخدم لسلطة العقل على النص لتفسيره وشرح مضامينه والنفاذ العميق إلى جوهره وحقيقته.

والمهمة الأخطر والأهم للعقل، وللتفكير العقلي الذي يمارسه "السيد" في تفسيره للنص ووعيه لقضايا الحياة استنادًا للنص المفسر عقليًا، أنه يشكّل مصفاة للنص ومعيارًا في قبوله أو رفضه إن لم يكن النص ذا مستند قطعي، أو تأويله إن كان كذلك، والوجه في هذه المرجعية المعيارية أن العقل عندما تتوفر شروط فعاليته بأن يكون قطعيًا وبعيدًا عن الهوى والمؤثرات فإنه يعتبر وحيًا داخليًا، كما جاء في حديث الرسول الكريم "العقل حجة باطنة، أي: رسول من الداخل. مما يجعل من العقل أساس حجية النص والوحي، ولا يمكن بالتالي بناء أو تشكيل معرفة دينية صحيحة ومعيارية إلا على أساس العقل، وأما الوحي حامل النص فإن دوره أن يكون موجهًا ومرشدًا للعقل لأن هناك كثيرًا من المعارف الدينية الاعتقادية التي لا عمل للعقل فيها ولا دور له أساسيًا، كما هو الحال في الحقائق الغيبية المرتبطة بعالم الآخرة التي يقف العقل إزاءها موقف المحايد لا ينفي ولا يثبت، تاركًا المجال أمام النص ليخوض في غمرات هذا الميدان. ويمكن أن نقول بأن النص كما هو في حاجة إلى العقل في تأكيد مرجعيته وإثبات حجيته وفي تقييم نتائجه الاجتهادية، فإن العقل بدوره يحتاج إلى النص في تحسين ظروف عمله وترشيده وإزالة العوائق من أمامه.

وإذا ما عدنا قليلًا إلى بدايات نشوء علم الكلام والفلسفة في الإسلام فإننا سنجد أن اعتماد كثير من علماء الإسلام وفلاسفته على العقل والإدراكات العقلية هو الذي أدى إلى تشكيل وصياغة أولى المعارف الكلامية التي كان لها دور كبير في إثبات مجمل العقائد المتعلقة بالإسلامي، وذلك بالاستناد إلى البرهان العقلي كما قلنا، كما هي الحال بالنسبة لإثبات الصانع "واجب الوجود"، أو في مسائل عقدية أخرى من قبيل "وجوب النظر والمعرفة" أو "وجوب إطاعة المولى" فإن هذه القضايا تعتمد على حكم العقل ولا دور للشرع فيها وإلاّ لزم التسلسل، وأمّا سائر العقائد كالاعتقاد بالمعاد أو الإمامة أو العصمة أو غيرها من أصول العقائد أو فروعها، فإنها لا تستغني في إثباتها عن العقل، وإن أمكن إثباتها عن طريق الوحي أيضًا.

والحاصل أن السيد فضل الله يحتفظ للعقل، عن وعي وقناعة وتجربة، بمكانة خاصة ودور مفصلي ومرجعي مهم في تشكيل وصياغة مفاهيم وتصورات المعرفة الدينية، على الرغم من وجود حالة من الرفض الذاتي لدى الكثير من الفرق الإسلامية لأي دور عقلي في الميدان التشريعي والاعتقادي مما ساهم في تعزيز ودعم الاتجاهات الظاهرية اللاعقلية في التاريخ الإسلامي التي تجمدت عند النص قرآنًا وسنة دون أن تعطي للعقل حقه في التحليل والفهم والوعي، وقد أوقع هذا النزوع اللاعقلي تلك الفرق في شرك القول بالتجسيم أو التشبيه، ولا مجال هنا للتوسع في الحديث عن ذلك.

خامسًا: العلاقة بين العلم والأخلاق في ضوء موقف "السيد" فضل منهما

ينطلق "السيد" فضل الله في إدراكه للعلاقة القائمة بين الأخلاق والأحكام القيمية الأخلاقية العليا في الحياة من جهة، وبين العلم والأحكام العلمية والعقلية والمعرفية من جهة أخرى، من قاعدة أساسية هي أن الإنسان موجود أخلاقي، وهذه قاعدة مطلقة، وأن القيم الأولية والأساسية الأخلاقية كالعدل والحرية والسعادة والتكامل هي قيم مطلقة. وهذا الكائن الأخلاقي يستمد وجوده وقيمه الأخلاقية وأحكامه الأخلاقية العملية، في المبدأ والأصل، من الإيمان بالله تعالى، باعتباره واجب الوجود ومصدر الواجبات، وأن طاعة أي أمر أخلاقي تستمد مشروعيتها من استلهام وطاعة الواجبات الإلهية.

وبالنظر إلى ذلك فإن الأخلاق والأوامر والقيم الأخلاقية لا يمكن أن تُبنى على قاعدة المصالح والمفاسد(11)، لأن المقاييس والأحكام الأخلاقية تحدد لنا ما هو أخلاقي وما هو غير أخلاقي بغض النظر عما

(11) نذكر هنا أن المصالح والمفاسد –كما صورها وقدمها بعض الفلاسفة والمتكلمين- مدركات بعدية تتحدد وفق مقاييس الضرر والنفع، وهي مقولات من عالم آخر غير عالم القيم الأخلاقية. أما في واقع الفكر الإسلامي فلا يمكن لتلك المبادئ والأحكام العقلية العملية أن ترتبط بالمصلحة والمفسدة. فالفعل يكون أخلاقيًا (أي يتصف بالصفة الأخلاقية المحمودة) ليس لمدى استجابته لمنطق النفع والضرر، وحسابات الربح والخسارة، وإنما لمدى تطابقه وتماثله مع الأمر أو القيمة الأخلاقية ذاتها.

يمكن لنا أن نشاهده ونكتشفه من منافع ومغانم وخسارات ومخاطر في الأفعال. وبالتالي فالأحكام العلمية ليست مرتبطة بالأخلاق، من زاوية أن العلم والمعرفة العلمية لا تنتج مقياسًا أخلاقيًا، إذ إن التطور التقني لا يحدد لنا مقياس العدالة وأسس المساواة وغيرها من القيم الأخلاقية. إن الأخلاق وما ينبغي فعله ليست خاضعة لمتطلبات التكوين والغريزة. باعتبارها مجموعة أوامر و"إلزامات" قيمية عليا محمودة في ذاتها لكونها تستمد قوتها وأحقيتها وحقانيتها من الإلزام الإلهي قبل أي شيء آخر. وأما مسألة تطبيق القواعد الأخلاقية على مصاديقها الحقيقية فهي ليست شأنًا من شؤون العقل العملي التطبيقي، وإنما هي نشاط عقلي نظري، ولا يمكن لأحد أن يدّعي أن تطبيق الكبرى الأخلاقية على مصداقها يفضي إلى علاقة استنتاجية بين الأخلاق والعلم.

من هنا أكد المتكلمون على أن مجرد الإيمان بأن الله موجود، وإرادته عين ذاته، وأمره عين وجوده، لا يسوّغ طاعة أوامره وامتثال نداء واجباته. وحتى الإيمان بكونه معشوقًا ومطلوبًا بالذات، فهذا الإيمان بطبيعته لاحق ومؤسس على حكمة عملية وعقل عملي مدرك للواجبات الأخلاقية. فرحلة العشاق والعرفان الحق لا يتأسس بالطفرة والبداهة، إنما هي رحلة مؤسسة لاحقة للعقل العملي وتهذيب السلوك والممارسة القائمة على طاعة الواجبات الأخلاقية. إن ما يبرر عشق الله هو حكمة عملية يتحلى بها العاشق ويجدها أكمل وأعلى في ذات المعشوق.

أهم مراجع البحث:

1- القرآن الكريم.

2- **موقع "بينات" على شبكة "الانترنت"**، وهو الموقع الرسمي للعلامة الراحل، http://arabic.bayynat.org.lb.

3- تفسير **"من وحي القرآن"**، بيروت، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، 2001م.

4- عادل القاضي، **الندوة**، سلسلة ندوات الحوار الاسبوعي بدمشق، إعداد: عادل القاضي، بيروت، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 1997م.

5- سليم الحسني، **في رحاب أهل البيت**، بيروت، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1998م.

6- في رحاب أهل البيت، بيروت، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 2001، إعداد وتنسيق: شفيق محمد الموسوي، وسليم الحسني.

7- فقه الشريعة، بيروت، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 2002م.

8- أسلوب الدعوة في القرآن، بيروت، دار الملاك، ط5، 1994

9- قضايانا على ضوء الإسلام، بيروت، دار الملاك، ط3، 1998

10- مع الحكمة في خط الإسلام، بيروت، مؤسسة الوفاء، ط1، بيروت، 1985

11- الحركة الإسلامية.. هموم وقضايا، بيروت، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1990

12- جعفري، محمد، **العقل والدين في تصورات المستنيرين الدينيين المعاصرين**، تعريب: حيدر نجف، بيروت، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة الدراسات الحضارية، ط1، 2010

13- علاقة الدين بالفلسفة، أبو الفضل عزّتي.. الاتحاد العلمي الديني في جامعة آذر آبادكان، 1393هـ.

14- نشرة **بينات**، نشرة أسبوعية تصدر عن مكتب "السيد" فضل الله الإعلامي.

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هاتـف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com